الحضارة

CIVILIZATION

بقلم

جيمس هارڤي روبنسون

JAMES HARVEY ROBINSON

نقلها إلى العربية

علي إسلام

obeikandi.com

كلمة المترجم :

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

حمل الىّ البريد فى مطلع عام ١٩٥٣ مجلدا باللغة الانجليزية أنيق المظهر ، متقن الطبع ، عنوانه Civilization — هدية من السادة الناشرين للطبعة الرابعة عشرة من دائرة المعارف البريطانية خصوا بها جميع من اشتركوا فى الموسوعة قبل اصدارها .

قرأت الكتاب ثم أعدت قراءته ، وأعجبت بما حواه من أبحاث علمية شيقة ، وآراء جديدة طريفة عن « الحضارة » ونشأتها وتطوراتها منذ أقدم العصور الى يومنا هذا . وقد أوجز كل ذلك وسرده بمهارة ولباقة وأسلوب شيق المستر جيمس هارفى روبنسون أحد فطاحل وعظماء كتاب الولايات المتحدة الأمريكية ، لينشر تحت كلمة Civilization بدائرة المعارف البريطانية فى طبعتها الأخيرة .

تُقت ورغبت فى نقل هذا المقال القيم الممتع الى العربية مساهمة متواضعة منى فى نهضتنا الشاملة ، وانتهزت فرصة وجودى فى بادجستين للاستشفاء صيف عام ١٩٥٤ فأنجزت الترجمة متوخيا الأمانة والدقة فى النقل جهد المستطيع ، راجيا أن يجد فيها القارىء ما وجدت من فائدة ومتعة . والله ولى التوفيق ؟

على اسلام

بنى سويف فى أول مايو سنة ١٩٥٦

obeikandl.com

مُقَدِّمَة

تُسْتَعْرَض فى هـذه المجمـوعة النفيسة العظيمة من مجلدات دائرة المعارف البريطانية، ابتكارات الانسان وابداعاته المتعددة فى جمال التصوير والألوان واللغة ، وسبله فى معاملة مواطنيه من تعاون وخصام وتنازع ، ومثـله العليا وطموحه وأخطاؤه وخيبة الأمل التى لا مفر منها ، وقصارى القول جميع تصرفات الانسان وتحسساته واخفاقه الذى يثبط العزم ويخلع القلب ، بجانب فوزه وانتصاره الباهر .

وهكذا لخص وأجمل چيمس هارڤى روبنسون الطبعة الرابعة عشرة من دائرة المعارف البريطانية فى المقـال الذى سيظهر فى صفحات الموسوعة والذى يطبع لأول مرة الآن فى مجلد خاص للمشتركين المؤسسين الذين ساهموا فى اصدار الطبعة الجديدة .

فاليك أيها المشترك المؤسس الذى يسرت معاونته اصدار الموسوعة التى تشع بنور أحدث ما حققته الانسانية والعالم، اليك يهدى الناشرون للموسوعة هذا الكتاب الذى يحوى

قصة الحضارة ، كرمز لائق ودليل على أنه برعاية المفكرين الأحرار وأصدقاء العلم والمعرفة أمثالكم يمكن السير قدما بالانسان فى طريق حسن الادراك والاستنارة وكل ما نعرف عن الحضارة .

المؤلفون والناشرون

obeikandl.com

الحضارة CIVILIZATION

ان دائرة المعارف البريطانية هى فى ذاتها وصف وتصوير للحضارة ، وذلك لاشتمالها على قصة الانسان وأعماله العظيمة وتطوراته المدهشة ، ولأنها تبين ماذا تعلّم وعرف خلال مئات الآلاف من السنين ، عن نفسه وعن العالم وعن المخلوقات التى تشاركه الحياة فى هذا الكون .

وقد تطلع الانسان الى الفضاء الفسيح ودرس السديم والكواكب التى يصل ضوؤها الى الأرض بعد مليون من السنين ، وشرح الذرة وفتتها ، وعالج الألكترونات الكهربية كما يعالج حفنة من الحصى .

تستعرض فى هذه الأجزاء النفيسة من دائرة المعارف ، ابتكارات الانسان واختراعاته من شظية الصوان الخشنة الساذجة الى الميكروسكوب الدقيق ، وابداعاته المتعددة فى جمال التصوير والألوان واللغة وكيف يعامل الانسان مواطنيه ، ما بين تعاون وخصام ، ومثل عليا رفيعة وطموح ، ومن أخطاء لا محيص عنها وخيبة أمل ، وبالجملة تستعرض

الموسوعة جميع محاولاته من فوز باهر واخفاق يثبط العزم ويخلع القلب .

جُمِّع آلاف من العلماء ليؤدى كل منهم نصيبه فى كتابة نحو الخمس والثلاثين مليون كلمة عما حققته الانسانية وما قاله الناس الى يومنا هذا .

وقد يلوح لأول وهلة أنه ليس من الضرورى ، بل وفعلا من المستحيل بحث « الحضارة » كموضوع خاص وفى بضع صفحات ، ولكن يخشى أنه بالنسبة لضخامة المعلومات المنشورة فى الموسوعة ، قد يغيب عن النظر بعض النقط الهامة الجديرة بالتأمل وانعام الفكر ، اذ توجد مسائل هامة تتعلق بطبيعة تطور الانسانية وسبلها والعقبات التى اعترضت طريق التقدم ، وأسباب النجاح والأخفاق ، وهذه أمور يتعذر الألمام بها جملة عند معالجة ناحية معينة من نواحى الثقافة الانسانية ، ولذا سنحاول فى هذا الفصل دراسة « الحضارة » بامعان باعتبارها نتيجة هامة مدهشة حققها الجنس البشرى .

من الحقائق المذهلة أن الحضارة التى ميزت الأنسان كثيرا وجعلته على نمط خاص يختلف عن غيره من الحيوان ، لم تكن معروفة ومفهومة الا فى الزمن الأخير ، ولما كنا مغمورين فى محيط هذه الحضارة منذ الطفولة فانا نراها أمرا واقعا

ويتعذر علينا تبينها بوضوح لشدة قربنا منها ، اللهم الا بعض تفصيلات هنا وهناك ، وبالرغم مما عرفناه اليوم من حقائق ومعلومات فان الذين يحاولون بعزيمة صادقة أن يتخيلوا انتزاع أنفسهم من محيط الحضارة كى لا يتأثروا بها ثم ينظرون اليها عن بعد ، فان الحضارة تحير عقولهم ، وحتى الكثرة العظمى من الأذكياء النابهين ، لا يزالون يتشبثون هم أيضا ببعض القديم من الأوهام وخاطىء الفهم للأمور ، وهيهات اقلاعهم عنه الا بشق الأنفس .

والهدف من كتابة هذا المقال هو وصف وتبيان السبل الحديثة للنظر الى « الحضارة » والى طبيعتها العامة ، ومنشئها ، وتقدمها ، وتحولاتها ، وتطوراتها ، فى ضوء المعلومات التى تجمعت خلال الخمسين أو الستين عاما الماضية، وقد كشفت دراسة الانسان نفسه فى نصف القرن الماضى عن الكثير من الحقائق والفروض الثائرة بقدر ما أنتجه البحث العلمى للكوكب الذى يعيش فيه . ولقد أمكن تتبع آثار الانسان بصفة اجمالية على الأقل ،مئآت الآلاف من السنين ، فدرست طبيعة الانسان البدائى وأدواته ، وقورنت بتصرفات أقاربه الأقربين وعوائدهم ، وبرزت آراء جديدة وتطورت بالنسبة لوظيفة التكلم ، وطبيعة ونشأة عقل الانسان ، وأدت

الأبحاث الدقيقة للمدنيات البدائية الى القاء الضوء على مدنيات أرقى ، ووضحت الأهمية البالغة لمرحلة الطفولة واشتباكاتها المتعددة بتطور الحضارة ، وأدت هذه العوامل وغيرها من الكشوف الى تعديل فهمنا (للحضارة) من حيث تطوراتها فى الماضى واحتمالات المستقبل .

ومن الخير أن نعلم أن كلمة (حضارة) [1] ليست كلمة قديمة وأن (بوزِول) [2] حَثّ الدكتور (چونسون) [3] ليدرجها فى معجمه سنة ١٧٧٢ . ولكن چونسون رفض مفضلا الكلمة القديمة (Civility) التى تعبر كما تعبر كلمة Urbanity على ازدراء الرجل المدنى للقروى أو الهمجى ، وهذا تعبير جاف ومثير للبغضاء ، وقد يسوِّغه — الى حد ما — ما يشاهد من أن المدنية لا تنمو وتزدهر الا فى جو المدينة ؛ لأن الواجبات الشاقة والمتفرقة التى تتطلبها مهنة الصياد والراعى والزارع ، لا توفر لهم وقت الفراغ والاتصالات المنوعة بالناس مما لا غنى عنه لازدهار الآراء الجديدة والكشوف .

وقد قرر مؤخرا « علماء التاريخ الطبيعى للانسان » أن

---

(١) حضارة Civilization

(٢) بوزول Boswell

(٣) چونسون Johnson

الأقوام الذين لا يسكنون المدن مثل قبائل (پولينيزيا)[1] وهنود شمال أمريكا ، لهم حضارة عالية ، واذا ما درست وفحصت أحوالهم بعين العطف وعدم التحيز ، تبين أن لهم لغة تعبر عن آرائهم بدقة ، ولهم فنون تتفق وبيئتهم بدرجة تدعو الى الاعجاب ، ولهم مؤسسات اجتماعية وسياسية ، وديانات وأساطير يؤمنون بها ليست أفضل ولا أردأ من غيرها مما نراه منتشرا اليوم بين بعض شعوب أوروبا . وهذا يدل على حدوث تطورات طويلة بدأت منذ زمن سحيق . وكان المستر (تيلور)[2] أول من أشار الى هذه الحقيقة الهامة ممن يتكلمون الانجليزية ، وذلك فى مؤلفه الشهير (المجتمع البدائى)[3] سنة ١٨٧١ — أى فى السنة التى ظهر فيها مؤلف (داروين)[4] « أصل الانسان » . وقد كان لظهور هذين المؤلفين — كل بطريقته — الأثر البالغ فى اعطاء كلمة Civilization معنى أعمق كثيرا مما كان لها من قبل .

كان من المتعذر فهم المميزات الخاصة الهامة « للحضارة »

---

(١) پولينيزيا Polynesia .

(٢) تيلور E.B. Tylor.

(٣) المجتمع البدائى Primitive Society .

(٤) داروين — أصل الإنسان Darwin - Descent of Man .

حتى عرفنا وآمنا أننا اذا ما أرجعنا سلالة الانسان الى الماضى البعيد لوجدناه مندمجا فى الحيوان ؛ فلا مسكن ، ولا ملبس، ولا كلام ؛ ومعتمدا للحصول على مقومات حياته وغذائه على البحث والجهد اليومى غير مضمون النتائج ، ومن العسير أن نتصور حالة الانسان بغير هذه الضروريات التى لا غنى عنها حتى للانسان البدائى .

ولا بد أن يكون الانسان قبل أن يعرف النار والأدوات قد عاش كما كانت تعيش الفتاة المتوحشة التى عثر عليها بالقرب من بلدة (شالون) [1] بفرنسا سنة ١٧٣١ وقد كانت سريعة الحركة كالقردة مما مكنها من اقتناص الطيور والأرانب فتسلخها بأظافرها وتلتهمها نيئة كالكلاب وتبتهج بامتصاص دم الحمام الحى . وكانت لا تعرف الكلام اللهم الا الصراخ المرعب المخيف والعواء .

الفهم الجديد للحضارة

حل تدريجا الرأى القائل بحياة الانسان البدائى حياة حيوانية ساذجة محل الرأى القديم المبنى على التقاليد

---

(١) شالون Chalons .

اليهودية ، وهو أن الرجل الأول والمرأة خلقا بعقل تام النمو ، وأنهما عرفا الكلام والمنطق مما مكنهما من تنسيق الجنة التى وجدا بها وتسمية ما بها من حيوان ، وتبادل الحديث ، بل ومن مخاطبة الخالق سبحانه وتعالى فى هدوء الأمسيات . ولا زالت هذه العقيدة مسلما بها من الكثرة الساحقة من الأمريكان وسكان أوروبا ، ويدافع عنها حتى اليوم بحرارة وحماسة جماعة قوية بالولايات المتحدة الأمريكية .

كان الاعتقاد أن الانسان قد وهب العقل والادراك ، وتميز بذلك تميزا واضحا عن الحيوان الذى قد يأتى بأعمال عجيبة حقا ، ولكن بدافع من الغريزة لا نتيجة لادراك العقل. وجميع تصرفاته تتم بالغريزة ، ويقول داروين ان الأفعال الغريزية تؤدى بالفطرة وبغير خضوع وارتباط بالعقل .ولكن اذا سلمنا نتيجة لشواهد عديدة أن الانسان عاش من زمن سحيق وتصرف كما تتصرف وتحيا الوحوش ، ألسنا مضطرين الى أن نتساءل عما اذا كانت حياة الانسان وقتذاك خاضعة خضوعا تاما لما يسميه داروين بالغرائز ؟ واذا كان أسلافنا الأول قد عاشوا معتمدين على وسائلهم الحيوانية فحسب فهل كان لهم عقل وادراك ؟ أو لا يحتمل أن يكون عقل الانسان شيئا قد نما تدريجا نتيجة لتكوين الانسان الفريد

وقدرته !! أو لايحتمل أن يكون ادراكه ما هو الا اسم آخر لما تجمع لديه ببطء من معلومات ومعتقدات وسبل التصرف نحـوها والبناء عليها ؟ وعلى كل حال فان الكشف عن أن أسلافنا الأولين قد عاشوا عيشة حيوانية أثار مسائل جديدة صعبة عن طبيعة وأصل وكيفية تلك القوى البشرية المعروفة بالعقل والادراك ، وهى القوى التى مكنته من البحث عن المخترعات والمعتقدات والتجارب التى أنتجت هذه «الحضارة». ومجمل القول أنه يظهر بوضوح أكثر فأكثر أن عقل الانسان وادراكه لم يكونا جزءا من أعضائه كيديه ورجليه ومخه ولسانه ، بل ان الانسان حصل على هذا الادراك رويدا رويدا بعد مجهود مضن وأن العقل والادراك هما مما أبدعه الانسان وأنهما — كباقى المخترعات الأخرى — جزء لا يتجزأ من الحضارة ولكن ليس بالفطرة ، بل لابد للمحافظة عليهما من مداومة التعلم والتحصيل . وهذا رأى جديد ربما تعذر على كثير من القراء ادراكه ، ولكن ادراكه يعدل تعديلا شاملا تقدير المرء لتقدم الانسانية .

ننظر دائما الى الحضارة باعتبار أنها مكونة من الاختراعات الآلية ، والكتب ، والصور والمعتقدات الدينية المستنيرة ، والأبنية ، والسلوك الحسن ، والعلوم ، والمعاهد الاجتماعية

والسياسية ، ووسائل المواصلات الجيدة ، وغير ذلك. ونتوهم أن كل هـذا يرجع الى أن للانسان عقـلا لا يحظى بمثله الحيوان ، وأنها وجدت كلها نتيجة لادراك الانسان . وهذا صحيح الى حد ما ، ولكن ينبغى أن نفهم ونتصور (العقل والادراك) كجزء من تطور « الحضارة » وتقدمها كالبرلمان أو السيارة تماما ، وخاضع مثلها للتقدم والتجويد .

وازاء المغامرة بتقرير هذه الفلسفة التى تبدو شاذة وغير ملائمة ولكنها فى الواقع ضرورة لاغنى عنها لفهم «الحضارة» فهما جديدا ، فمن الخير أن يتناول البحث أحدث وجهات النظر للعقل وقسيمه الاستدلال .

كانت كلمة Mind فعلا لا اسما . وكانت تطلق على التذكر والقصد والملاحظة فكان المقصود من عبارة I minded مثـلا ، اننى تذكرت وانتبهت واهتممت ، ومـع مرور الزمن جعل الفلاسفة من هذا (الفعل) القديم اسما ، وكان التصور أن العقل هو الشىء المعنوى الذى يتركز فيه شعور الانسان وأفكاره واحساساته وعلى الخصوص ادراكه ،وكان الجسم والعقـل قوتين متقابلتين . وكان يظن أن الجسم يستجيب لأوامر العقل ، وكان الفيلسوف الاسكتلندى النابه

(ريد) [1] يقول بصراحة وبتأكيد اننا لا نطلق اسم Mind على الفكر والادراك والرغبة ، ولكن على تلك القوة التى من شأنها أن تدرك وتريد معـا . ويقـول (چون استيورت ميل)[2] فى كتابه « المنطق » : ان العقل هو الشيء الغامض الذى يحس ويفكر .

ظهرحديثا اتجاه الى الرجوع الى استعمال الاسم Mind للتعبير عن سلسلة من الأفعال ، رغبة ، تذكر ، احساس تفكير ، تمييز ، استنتاج ، تدبير ، واعتبار أن لا أساس ولا ضرورة لافتراض أن العقل هو الشيء الغامض ، لأن هـذا الفرض يسبب ارتباكا جديا ، فاذا ما تخلصنا من هذا الارتباك تيسر لنا أن نعبر الهوة بين سلوك البشر الفطرى وبين سـلوك الناس اليوم .

كان (ديكارت)[3] وجميع الفلاسفة القدماء يعتقدون أن الانسان كان له دائما عقل لا يقل عن عقولهم ، وعملوا على ارشاده ليستعمله فى السعى وراء الحقيقة ، وكانوا يعتبرون العقل أداة الهية خص الله بها الانسان وحده ، وأنه صالح

---

(١) Reid .

(٢) John Stuart Mill .

(٣) Descart .

لأن يهذب ويستعمل بنجاح باتباعه قوانين المنطق ، ولم يفكروا فى العقل باعتبار كونه نتيجة لما تجمع من معلومات خلال آلاف السنين عندما بدأ الانسان بناء الحضارة .

الطريق ممهد الآن أمام وجهة نظر جديدة « للحضارة » ولم يكن ذلك ميسورا قبل خمسين أو ستين سنة ، ولا تعتبر «الحضارة» اليوم الشىء المضاد للبداوة والبربريةوالوحشية ، بل بالمقارنة الى تراث الانسان الحيوانى . فالانسان اليوم لايزال حيوانا ، اذ لابد له من أن يأكل وينام ويقى جسده تقلبات الجو ويدافع عن نفسه من عدوان الآخرين من البشر ومن الحيوانات الأخرى ، ويتناسل لحفظ الجنس . كما يشبه الانسان شبها كبيرا من الناحية الجنسية غيره من الحيوان بالنسبة لأعضاء الجسم الهامة والتنفس والهضم والدورة الدموية . وهذه الخواص تنتقل للانسان بالوراثة وبغير اعتبار لمدى نصيبه من « الحضارة » . ومن ناحية أخرى « فالحضارة » — وهى اللغة والديانات والمعتقدات والأخلاق والفنون ومظاهر العمليات العقلية — كل هذه لا يمكن أن تنتقل الى النسل كخاصية بيولوجية ، ولكن يمكن أن تنتقل الى جيل جديد بالتقليد والتعليم

للانسان اليوم ميراث مزدوج ، نرث أحد شطريه بغير

جهد ما ، كما يرث العنكبوت أو الطير أو أى من أقربائنا الثدييات صفاته ومميزاته الخاصة ، وهذه صفات مؤكد توارثها ولا تتغير بل تدوم آلاف السنين . أما الشطر الثانى « الحضارة » فغير وراثى ، ولا بد من تحصيله واستيعابه من جديد وبجهد خاص من كل فرد منا بما تتيحه له الفرصة والملابسات ؛ « والحضارة » يمكن أن تنمو الى غير حد كما يمكن أن تتدهور تدهورا شديدا كما يدل على ذلك دلالة كافية تاريخ الانسان . ولايضاح ذلك يمكن القول انه من المحتمل أن الانسان قبل اكتسابه أى قدر من هذه «الحضارة» العرضة للضياع والفقدان ، كان من تصرفاته الدفاع عن نفسه بأن يلتقط عصا ليضرب بها خصمه أو أن يقذفه بحجر ، وكان يدرك كيف يمتطى جذع شجرة ليعبر عليه مجرى الماء . وقد يوجد أناس فى كل جيل يستطيعون عمل مثل هذه الأشياء من غير أن تكون قد سبقت لهم رؤيتها ، وتعتبر مثل هذه التصرفات من ميراث الانسان الطبيعى . أما الانسان الذى يرقق قطعة الصوان ليصنع منها بلطة ليجوف بها جذع الشجرة ، والانسان الذى يعرف النار ، فان مثل هؤلاء ومثل هذه الأعمال تعتبر من أصول الحضارة لأنها نتيجة لمعلومات وخبرة ويستحيل توارثها بالفطرة . وقد يفقد الناس

المقدرة على صنع مركب بدائى اذا ما مر جيل واحد بغير بناء مركب ، كما لابد أن يكون قد اندثر الكثير من المخترعات لهذا السبب . ويتضح الآن كحقيقة محتمة وواقعية أنه اذا ما انتاب الناس فقدان الذاكرة وأصيبوا بالنسيان فلا مفر من اندثار « الحضارة » وضياع تراث الانسانية ، ولا يبقى للبشر الا معداتهم الطبيعية . ويقول (جراهام والاس) [1] . ان الانسان الأقل حضارة سيكون اذ ذاك أقدر على الحياة ، لأن الانسان البدائى يستطيع مواصلة البقاء والوجود . وما نحن جميعا الا حيوانات متوحشة فعلا ، واستئناسنا يضعفنا اذا ما قدر لنا مواجهة الكفاح القديم فى الغابة ونحن عرايا صفر اليدين .

التكوين الخاص لجسم الإنسان

يبدو التساؤل عند هذه النقطة عن المميزات الخاصة لتكوين جسم الانسان التى مكنته من المبادأة الى التحضر وتكوين عقل يمكنه أن يستعمله فى زيادة موارده بدرجة تفوق بما لا يقاس به أى حيوان غيره . ولنذكر أولا أن وسائل جميع المخلوقات متشعبة ومدهشة حتى تلك المكونة

---

(١) Graham Wallas

من خلية واحدة فانها تستطيع أن تتكيف بصورة رائعة مع ظروفها المتغيرة ، ويلوح أنها تتعلم بالخبرة والتجربة ، وأن لها نوعا من الذاكرة ، وأنها تتحور تبعا للأحداث التى تعترض حياتها العادية الرتيبة وتدافع عن نفسها بمهارة لتحصل على غذائها ولتتكاثر . وبالاختصار فان لتصرفات هذه الخلية هدفا وغاية معينين .

يستطيع النمر والضفدعة مثلا أن تكيفا حياتهما تبعا للظروف المتباينة ؛ وكذا يستطيع الصفير والصبير . ولا مناص من أن نفترض أن الانسان البدائى كان يعمل قبل أن يتحضر على مواجهة حاجته المستمرة ليتكيف وبيئته ؛ والا لما أمكن أن نوجد اليوم على ظهر الأرض لنكتب قصة الانسان .

هذه أسس الحياة البارزة ، وما الانسان الا جزء مما يسميه (چوليان هكسلى)[1] « مجرى الحياة » . وجميع هذه الامكانيات هى أساس التطور فى ذكاء الانسان ، ومنها برزت « الحضارة » ، واليها المرجع والملاذ .

كان لزاما على الانسان ليبدأ ويواصل تجميع وازدياد معرفته « للحضارة » أن يكون تكوين جسمه مناسبا ليدرك بحواسه بدرجة أرقى مما كان عليه أسلافه ، وأن يميز

(١) Julian Huxley .

الأشياء بدقة أكثر ويتذكر ويتصور الأمور على وجه أوضح؛ فان كل هذه الصفات من الضرورات للتكلم والتفكير . ودراية الحيوان من نوع منحط وغامض ، ولا بد وأن تكون هذه هى حالة الانسان البدائى . والحيوان ذو الخلية الواحدة يستهدف فى سلوكه غاية ما ، ولكن ليس له أعين ولا آذان ولا أنوف ، ويعيش فى سكون وظلام كالانسان الأعمى الأصم الأخرس ، ومع ذلك فهو يأخذ نوعا من الغذاء وينبذ بعض الأشياء الأخرى . وهذه تصرفات تؤدّى بالفطرة وبغير شعور ولا تصميم بالمعنى المعروف عن الانسان كما نعتقد ، وليس لها جهاز عصبى وان كشف مؤخرا بوادر جهاز عصبى .

وللمخلوقات التى تشبه الانسان أعين وآذان وأنوف ، ولذا فهى تبصر وتسمع وتشم ، ولها جهاز عصبى دقيق ، وتستعمل تلك الحيوانات هذه الأجهزة جميعا ولكن بدرجة بسيطة اذا ما قورنت باستعمال الانسان لها ؛ فالحيوان عاجز عن التميز بوضوح والتذكر بجلاء ، وانتباهه مقصور على أشياء ضئيلة مما يحيط به ، ولا بد وأن تكون تصرفات الحيوان مشابهة لتصرفات جهازنا الهضمى ، فهو نوع من الحيوان داخلنا يؤدى أعمالا عجيبة عندما يتلقى الطعام فيعمل

لهدف معلوم ؛ كما هى الحال بالنسبة للقلب والدورة الدموية. ويمكن أن نشعر بهذه الأعمال الهامة التى تتم بلا وعى وذلك عندما نغص « نزور» بالطعام اذا ما دخلت كسرة صغيرة الى قصبة الهواء بدل ذهابها الى المعدة . أما ضربات القلب فدليل محسوس على تأدية هذه المضخة لعملها بأمانة . وقلما تذكرنا بانتباهها الدائم لأداء مهمتها ، ولكن دع القلب يهمل الدق مرتين أو ثلاثا فاذا نحن ميتون .

عالج كثير من الكتاب موضوع أعضاء جسم الانسان الضرورية لكى يبدأ « الحضارة » وينميها ، فللانسان يدان حساستان ، وقد تمكن — بعد أن استطاع الوقوف منتصبا على رجليه الخلفيتين — من استعمال يديه بحرية أكثر مما لو أنه استعملهما كأقدام مساعدة ، ويستطيع الانسان أن يجمع بين ابهامه وأى من أصابع يده ، وينفرد بذلك فى احساسه بيده وتداوله الأشياء بها عن جميع الحيوانات القريبة له . اذ يتعلم بيده وأصابعه الكثير عن الشكل والهيئة والرخاوة والصلابة والثقل والملمس والسخونة والبرودة وكثافة القوام واليبوسة والليونة . وهذه جميعها لا يمكن تحسسها بالحافر أو الظلف الا احساسا غامضا ، ولو كان للانسان آذان يستطيع أن يديرها حوله كما يفعل الأرنب ، وذنب يقبض به على الأشياء لكان أقدر على التعلم بمزيد من السرعة .

وكان هذا كله بداية المعرفة ولم تقتصر مقدرته على الضرب ؛ بل أيضا الرشق ؛ كما أن وضع عينيه مكنه من أن يرى الأشياء مجسمة كما لو كان يراها من خلال أستيروسكوب. وقد تبين من الأصوات التى يحدثها أن أجهزته الصوتية قادرة على احداث مجموعة واسعة المدى من الأصوات المتميزة، وكان يعتمد ابان طفولته لسنين طويلة اعتمادا كليا على من يكبرونه سنا ليتعلم منهم عاداتهم المكتسبة . وأخيرا هناك مخ الانسان بغلافه الخارجى المعقد وما يحويه داخل الجمجمة وتلافيفه التى تنمو نموا عجيبا مع نمو الطفل ؛ ذلك الغلاف الذى يعد المنظم الرئيسى للانطباعات والذى يتحور تبعا للمرانة الشخصية بدرجة تفوق أى جزء من الجهاز العصبى. ولا زالت طريقة أدائه لوظيفته لغزا غامضا رغم عدم الشك فى دوره الأساسى فى تعلم الانسان وزيادة ذكائه ، ولو أن عمله ليس مستقلا ومنفصلا بل مرتبطا ومتصلا بالجسم الآدمى جميعا ومتوقف على تلك المؤهلات البشرية الفريدة التى سبق ذكرها .

وهكذا يتضح أنه بعد انقضاء مئات ملايين السنين كانت الطبيعة تجتاز خلالها تجارب عديدة فى بناء الأجسام وتأدية وظائفها مما مكن المخلوقات المتباينة تباينا غريبا فى تكوينها

وتركيبها من أن تواجه ضرورات الحياة من النمو والتكاثر اللازم لحفظ الجنس ، ظهر أخيرا على وجه الأرض حيوان مكون تكوينا يمكنه من أن يتحضر . وتكوين الانسان البيولوجى يحوى مزيجا فريدا من الصفات والخواص الجسمية ، ولكن أكثر هذه الصفات الجسمية متوافر للحيوان الثديى . وحتى الصفات التى يلوح أنها من خصائص الانسان لا تفسر سبب تطور حضارته ، فقد يكون للبقر مخ يشبه فى تركيبه مخ البشر ، وللثعلب ابهام كالانسان ، وللطير عيون ستروسكوبية ، وللكلاب جهاز للصوت شبيه بأجهزتنا الصوتية . ومع كل هذا « فالحضارة » بعيدة كل البعد عن ادراك تلك الحيوانات جميعا .

يستطيع الانسان أن يعلم الحيوان بعض الحيل واللعب كما يعرف الحيوان بنفسه وبالتجربة بعض الأشياء ؛ فقد يستطيع الشامپنزى فى ظروف مواتية أن يأتى ببعض أعمال تشبه أعمال البشر كما أوضح ذلك (كوهلر)[1] ولكن لا يستطيع أى حيوان المبادأة بذاته لمعرفة أى فن أو علم وأن يصل ذلك الى خلفه كميراث للنوع .

(١) كوهلر Kohler .

وهكذا كانت عدة الانسان الفطرية ليتحضر ، وواضح أنه لم يكن فى مقدوره التنبؤ بما هو مقدم عليه من أحداث عظام . ولم يكن تطور حضارته مدبرا من قبل أكثر مما كانت نشأته من أسلافه الأولين (أشباه القردة)[1] — ويلوح أنه يتوافر من الأدلة والشواهد التى تدل على أن الانسان قد تطور ببطء شديد خلال مئات آلاف السنين وبدرجة جعلت هذا التطور فى الحياة وأساليبها غير ملحوظ . وكان الجيل يتقبل الحالة التى وجدها سائدة فى عصره غير محاول تغييرها أو تحسينها ، وان تصورنا الحديث للتقدم وزيادة معلومات البشر زيادة لا حد لها ، والافادة من المعلومات الجـديدة لتحسين حالة الانسان ، هذا التصور الحديث لم يكن معروفا حتى لليونان والرومان ، ومنذ القرن الثالث عشر وما بعده فطنت قلة من الكتاب للمستقبل واحتمالاته ، وقد قوبلوا بضجة واعتراض من قوم يعتقدون أن تغير التقاليد البشرية القديمة كان سبب ما تلاقيه الانسانية من ويلات ومحن .

وجاهد أدباء اللغات الكلاسيكية فى استعادة حكمـة

---

(١) أشباه القردة Simian Ancestors

اليونان والرومان ، وحاول البروتستانت احياء معتقدات وتقاليد المسيحيين الأوائل .

نشر (بيكون)[1] منذ ثلاثة قرون فقط برنامجه العنيف للبحث عما كان مجهولا الى ذلك الحين ، وكان لهذا البرنامج أثر كبير وعظيم جدا ، وفى القرن الثامن عشر كثر أنصار الفهم الجديد للاصلاح والتقدم وكانت تنبؤاتهم عن التطور المنتظر لاقتصاديات حياة الناس مستقبلا ضئيلة اذا ما قورنت بأحداث القرنين التاسع عشر والعشرين ؛ فقد جاوزت وفاقت تلك الأحداث جميع التنبؤات .

وعلى كل حال فما زلنا نلاحظ دائما ما يفسر ثقة الانسان واطمئنانه الى نسق الحياة المطرد الذى صادق عليه الثقات الأقدمون وارتيابه وعدم اطمئنانه للتجديد العنيف سواء فى المعتقدات أو فى مجرى الحياة . وهذا التشبث العنيد بعاداته وشكه فى كل جديد لم يألفه ، يتفق ونشأته الحيوانية ، وهذه الخلة — وخاصة المحافظة على القديم — قد عاونت على بطء التغير ، بينما زادت دوام بقاء ما يتوصل اليه ويدرك من معلومات جديدة ، وهذا يفسر الدور الذى لعبته قدسية الحرمات فى تطور الانسان ؛ اذ أسدل على معتقداته وعاداته

---

(١) بيكون Bacon .

ستارا صانها من التمحيص الدقيق السافر والنقد البذيء . وقد ازداد اليوم عدد من يبيح النقد أحيانا ولكنهم على كل حال قلة ، ولعل ما نعتبره اليوم محافظة أو رجعية كان طابع الانسان الأول ، وهذا يشبه تصرفات الحيوان .

من خاصيات الحيوان — سواء الدنيء ذو الخلية الواحدة أو الحيوان الراقى — الميل والاتجاه الى صيانة حياته وحفظها ، والاتيان بحركات لا ارادية كالتمدد والانكماش والعدو والهرولة هنا وهناك جريا وراء الغذاء والتزاوج .

وعدم الاستقرار هذا ، والسعى الدائم ، من خواص الانسان أيضا . والى ذلك يرجع الفضل فيما حققه من اختراعات وكشوف ، ومن خصال الحيوان الراقى ما يفسر ما اتصف به الانسان من حب الاستطلاع والفضول ، ولعل الحذر من المهاجمة والتعدى جعل حب الاستطلاع هذا من أسس عوامل البقاء .

وكان الانسان معتادا بالفطرة والسليقة التسكع والتحسس والوقوع فى الخطأ قبل أن يعرف التحليل العلمى والاختبارات. وقد مر ولا ريب مئات آلاف السنين قبل أن يصل الانسان الى أبسط وأحط مدنية تعرف الآن بين القبائل البدائية .

وقد تبين من الجماجم المتحجرة والأسنان والعظام التى

وجدت فى طبقات الأرض المختلفة أن الإنسان الشبيه بالقردة عاش منذ نصف مليون ، أو منذ مليون سنة . وتدل الآثار والجماجم التى وجدت لبعض الأجناس مثل رجل جاوا أو هيدلبرج أو (النندر ثالودى)[1] الأحدث عهدا ، تدل تلك الآثار على أن هذه الأجناس جميعا قد انقرضت وبادت ولم يبق من آثارهم وأعمالهم سوى بعض أدوات صوانية يَظْهَرُ تطور تحسنها وتنوعها بمرور الزمن . ولا سبيل الى معرفة ماهية فنونهم ومعتقداتهم ووسائل حياتهم فى أى عصر من عصور أى مجموعة من تلك الأدوات الصوانية .

حاول (سولاس)[2] فى مؤلفه « الصيادون القدماء » أن يقرن بدقة ومهارة هذه الأسلحة التى ترجع الى عصر ما قبل التاريخ بحضارة (التزمانيين)[3] والاستراليين والاسكيمو وغيرهم .

وقد تطورت جماجم الجنس الذى يطلق عليه اسم (كروماجنون)[4] الى درجة تشبه جماجم البشر اليوم وينسب

---

(١) Neanderthal .

(٢) Sollas .

(٣) Tasmanians سكان جزيرة تسمانيا التى اكتشفها تازمن Tasmen فى عام ١٦٤٢ .

(٤) Cro Magnon Race اسم يطلق على جنس عاش فى العصر الباليولوثك ويمتاز بطول القامة وطول عظام الرأس .

الى هذا الجنس من الناس صناعة الصور الملونة والرسومات العجيبة الفذة التى وجدت بالمغارات والكهوف فى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا ، والمعتقد أن عهدها يرجع الى ٢٥ — ٣٠ ألف سنة . ويوجد فى منتصف ذلك العصر آثار آلات من الحجر مهذبة ومصقولة ، وتدل على أن الانسان لم يعد يعتمد على الصيد اعتمادا أساسيا فى حياته ، وأنه قد اتجه فعلا الى الزرع والحصاد والغزل والنسج . وكما يلاحظ فى منتصف النصف الثانى لذلك العصر تباشير بداية استعمال النحاس الذى كان أول ما استعمله الانسان من المعادن التى تقوم عليها مدنيتنا وحضارتنا . وهذه معلومات تاريخية عامة تزداد وضوحا بمرور الزمن ودوام البحث والتنقيب ودراسة الكون بشكل أدق وأوفى لمعرفة تاريخ الانسان فى العصور الغابرة .

ولزيادة الايضاح وتبين الموضوع بدقة ، فلنتصور ونتخيل أننا ضغطنا خمسمائة ألف سنة من سنى تطور الحضارة الى خمسين سنة فقط ، وعلى هذا الأساس والمقياس كان يحتاج الانسان الى ٤٩ سنة ليتخلى عن اعتماده فى حياته على الصيد ويستقر فى القرى . وفى النصف الأول من السنة الخمسين تعلم أن يكتب ومارس الكتابة فى نطاق ضيق جدا ، ووطد

بذلك ونشر أعظم وسيلة من وسائل الحضارة والثقافة الانسانية . وتمثل مدنية الروم أشهرا ثلاثة ، وانتشار المسيحية شهرين ، واختراع الطباعة أسبوعين ، واستعمال البخار نحو الأسبوع . وأما تكامل الملابسات والظروف الخاصة التى تحيط بنا فتأتى فى اليوم الأخير من ديسمبر من السنة الخمسين .

ويذهب بعض علماء الجنس البشرى (الانتشاريين) [1] الى أن الأصل والمنبع الذى نشأت وانتشرت منه أعلى وأرقى وسائل الحضارة — « الكتابة » « التعدين » و « اقامة المبانى العظيمة الشامخة » — أن كل هذا أتى من منطقة واحدة هى « مصر » . وقد جمع هؤلاء العلماء الكثير من الأدلة التى تبرهن على أنه بوساطة تجارة الفينيقيين قد انتشرت المخترعات المصرية وامتدت شرقا الى الهند والصين واليابان ثم عبر الباسيفيكى لتكون أسس ثقافة (مايا)[2] فى أمريكا الوسطى . ولا محل هنا لمناقشة جدارة رأى جماعة الانتشارية . ويعتمد (ج — اليوت سميث) [3] — وهو من أعظم أنصار هذا

---

(١) Diffusionists أى الانتشارين — مدرسة فى الأنثر وبولوجيا تقول إن الحضارة انتشرت من مركز واحد ومنه انتشرت وامتدت إلى غيره من المراكز .

(٢) Maya .

(٣) G. Elliot Smith .

المبدأ — تأييدا لرأيه على أن الكثرة العظمى من الناس لا تستطيع الاختراع ، علاوة على كراهيتهم لكل جديد وتمسكهم العنيد بالقديم المألوف وصلابة رأيهم فى ذلك . ولكى يتقبل الناس ويألفوا أى جديد — مهما كان بسيطا تافها — فلا مفر لأى رائد فى الفن أو العلم أو الاختراع من أن يناهض ويجاهد أمام سد سميك من التحيز المتأصل والبلادة الموروثة ، ويعلم جميع « علماء الجنس البشرى » حق العلم عداء الانسان وكراهته وبغضه لكل جديد الى درجة قد تعتبر تلك الكراهية للجديد خلة وخصلة فطر عليها البشر كما يتضح مما بيناه فى السطور السابقة ، كما يؤمن هؤلاء العلماء أيضا بأن تبادل التجارة والفتوحات من أهم وسائل انتشار المخترعات الجديدة ، ومع ذلك فهناك جمهرة تؤيد أن الكثير من الاختراعات والكشوف قد توصل اليها فى نواح مختلفة من العالم لا اتصال بينها ، وذلك بدافع من الضرورات والحاجة المتماثلة والظروف المحيطة والملابسات ، وعندما نعالج فى القسم التالى ضرورة وحاجة الناس للمخترعات المفيدة سنتبين أنه رغم أنها تبدو لنا اليوم كأشياء عادية لا خطر لها بسبب ازديادها وتراكمها مع مضى الزمن وسهولة الاضافة اليها وتوافر الوسائل الحديثة للعمل بها ، رغم ذلك فقد كانت تلك

المخترعات أول الأمر صعبة المنال عندما كان الانسان يحيا حياة بدائية تشبه حياة الحيوان ، وبمجرد معرفة المخترعات وذيوعها بين بعض القبائل يسهل نقلها الى جماعة أخرى من البشر بيسر أكثر من أن تكتشفها تلك الجماعة .

تعتمد الحضارة على الكشوف والمخترعات التى توصل اليها الانسان وأيضا على تأثيرها الكبير فى تصرفاته اليومية وأفكاره واحساساته ، وكلما زادت معلومات الانسان ومهارته فأى أكثر وابتعد عن حياته الحيوانية البدائية ، أما كيف بدأ الانسان يتعلم فمحل للحدس والتخمين اذ أن صنعه للأدوات والأسلحة البدائية وابتكاره التكلم واشعاله النار ، كل ذلك قد سبق بزمن طويل أى تأريخ مدون لتثقف الانسان وتحضره وهذا ينطبق أيضا على ما عرفه الانسان فى أزمنة أحدث عهدا عندما تعلم الغزل والنسج والزراعة . وقد اجتاز الانسان كما قدمنا مئات آلاف السنين ليتعلم هذه الأشياء ذات الأهمية الفائقة على بساطتها ، اذ عليها بنى حضارته الأرقى وتطوره الأعظم ، وقد نفخر نحن أبناء هذا الجيل بحضارتنا ومخترعاتنا المعاصرة ولكن علينا أن نذكر أننا مدينون بها الى الصياد المتوحش وزارع العصر الحجرى الأميين الذين ورثنا نحن وأجدادنا عنهم المعلومات والمهارات التى تجمعت لديهم وانحدرت

الينا منهم ، والتى كان يتعذر علينا بدونها النجاح فى تجاربنا الحديثة . فماذا كانت تكون حالنا لو لم نعرف النار والكلام والملابس والخبز ؟؟ ولما كان الاختراع والكشف لكل جديد وتراكم المعرفةوالحقائق وتجمعها هى المادة التىتخلق الحضارة وتزكيها ، كان من المناسب لبحثنا هذا أن نتأمل وننظر كيف توجد وتخلق تلك العناصر والعوامل .

فى متناولنا الآن شواهد عديدة فى تقارير الكاشفين عن طريقة توصلهمالى كشوفهم ،وشواهد عن نتيجة تقبل الجمهور لثمرة كشوفهم هـذه وتصرفاته نحوها ، ولابد وأن الرواد والكاشفين جميعا محبون للاستطلاع والبحث ، صبورون كل الصبر لتلمس الحقيقة والبحث عنها ، وقد يلاحظ أن تهدأ فى الأطفال خلة الفضول وحب الاستطلاع وتخبو ، ولكنها فى الحقيقة تبقى بشكل ما فى بعض الحالات النادرة مدى الحياة عند بعض الممتازين ، وهؤلاء يتميزون بطموح خاص لا يتوافر لغيرهم من مواطنيهم . وقد يوجد هذا النوع الممتاز من الناس بين المواطنين العاديين فى القرية ، أو فى معهد هامللأبحـاث العلمية . ويعمد هؤلاء الى الاسـتفادة من الحقائق العلمية المعروفة ، فلا يحتـاج ميكانيكى القرية النابه الى اختراع المفتاح الانجليزى أو الشريط العازل للحرارة ، كما لا ينبغى

لعالم البيالوجيا أن يعرف تفصيلات أسس تركيب العدسات التى يستعملها فى أبحاثه ولا كيف يخترعها ويصنعها ؛كما أن عالم طبقات الأرض ملم بمئات الحقائق عن موضوعه قبل أن يقوم بأى كشف جديد . ومن المسلم به لدى المخترعين أن اختراعاتهم قد تأتى مصادفة ولا يعرفون سلفا ماذا ستسفر عنه أبحاثهم وغالبا ما يجدون أشياء لم تكن هدفهم ؛ كما حدث (لشاؤول) [1] عندما عثر على مملكة أثناء بحثه عن الحمير الضالة .

ينسحب ما تقدم على جميع الأحوال التى تؤدى الى زيادة معلومات البشر سواء أكان ذلك نتيجة ما نسميه العوامل الطبيعية أم نتيجة لأفكار جديدة فى نواحى الفلسفة والفنون، فكل هذا ثمرة لحب الاستطلاع والصبر والبحث الدقيق والتأمل العميق ، وعلى أحسن الفروض فلا تعدو هذه المعلومات الجديدة أن تكون بعض التعليقات والشرح على هامش ما حققه البشر من علم ومعرفة تنوعت الآن وتضخمت لدرجة يعجز أى فرد عن الاحاطة بها اللهم الا من بعض

(١) شاؤول Saul ـ تقول الأساطير القديمة ان الملك شاؤول أحد شخصيات العهد القديم كان قد خرج لصيد الحمير الوحشية فعثر أثناء ذلك على مملكة نصبه أهلها ملكا عليها .

نواح وتفصيلات هنا وهناك . ولو حاول أى انسان الاحاطة بها جميعا لاستحال عليه اضافة أية معلومات جديدة الى تراث الانسانية .

ولا يعتبر أى كشف جديد أو اختراع أو تصحيح خطأ قديم ، كسبا للمدنية وجزءا منها الا عندما تتقبله العشيرة وتعتبره ركنا من تقاليدها وتصرفاتها ، ويمكن أن نذكر الكثير من القصص المنفرة عن معارضة المهنيين والجمهور لكثير من المخترعات معارضة تبدو اليوم سخيفة ومزرية .

يرجع فضل الاختراع والكشف الى أفراد من البشر رجال ونساء ، ولكن لا يمكن أن تنمو الحقائق الجديدة وتزدهر فى غير البيئة الصالحة ، وهناك أمثلة كثيرة على تعثر ظهور وتوطيد أصول حقائق ومعلومات نافعة كان يؤمل اضافتها الى حضارة الانسان .

ولا يقتصر تأثير بعض الكشوف الجديدة والمخترعات الآلية على استعمالها المباشر بل يتعذر التنبؤ بمدى اتساع مفعولها ونتائجها فى حياة البشر : فالنار تستعمل لطهى الطعام أو حريق الآنية الفخارية وتدفئة جماعة من المتوحشين العراة ، كما ترعب وتخيف وتقصى الحيوان الوحشى ، وتذيب المعادن

وتلتهم القرابين التى تقدم للآلهة ، أو أن تكون النار المحور الأساسى فى معبد فخم وتفعم بالعذارى الطاهرات ، أو أن تلعب دورا هاما كرمز للكهنة والشعراء .

كان لاستئناس الحصان أثر كبير على هنود سهول شمال أمريكا كتأثير الأسلحة النارية والوسكى على قبائل أفريقيا ، كما كان للسيارة والتلفون أثر واضح فى تحرير العلاقات الانسانية ، كما أن اتقان الآلة البخارية كان له شأن واضح فى مواصلات الناس ونقل أمتعتهم ، كما شجعت تلك الآلة البخارية على نمو المدن ودفعت (ماركس)[1] الى تصنيف مؤلفه العظيم الذى صار عقيدة لها من عظيم الشأن فى تطور الأحوال الاجتماعية ما بلبل الأفكار فى جميع الشعوب .

وكان لاختراع الملابس الصوفية أو الحريرية أو القطنية، وهذه مسألة مادية محض ،كان لاختراعها الأثر العظيم ، لا فى خلق صناعات كبيرة فحسب ، بل مكنت الناس بسترهم لأجسامهم بهذه الوسيلة الصناعية من خلق فروق اجتماعية متجانسة ومتلائمة والأجناس البشرية وطوائفها ، ونشأ عن

---

(١) Karl Marx الاشتراكى الألمانى الشهير مؤلف كتاب « الرأسمالية » الذى صدر سنة ١٨٦٧ .

استعمال الملابس شيوع الحشمة المتكلفة باسم الدين واستنكار العراء مما أذاع الدهشة والفزع بين السود .

أخذت ملابس السيدات تقصر تدريجا بعد الحرب العالمية وعاون على ذلك دفء المساكن ودفء وسائل المواصلات ، وزال ومحى بتقصير ملابس السيدات ما كان يميز الفتاة عن المرأة . كما أدى سفور المرأة المسلمة والمرأة الهندية وتدهور البردة فى الهند الى تطورات واضحة فى حياة المرأة وفى علاقات الجنسين ونظرة كل منهما الى الجنس الآخر مما ينبىء بتطور وتغير أهم فى تقاليد الحضارة .

ازاء هذه الحقائق يلوح أن ما كان يعتبر أرقى طموح وتصور للانسان فى ميدان الفنون والآداب أو استقصاء الحقائق ، أن كل ذلك لا يعتمد على الاختراعات المادية فحسب ، بل ممتزج بعضه ببعض امتزاجا يصعب معه فصل الواحد عن الآخر الا تخيلا وتصورا ، فان ما نسميه الحياة الانسانية السامية كثيرا ما تنبت وتعتمد على خبرة الانسان البدائية ومهارته . وعلى ذلك فالاعتقاد السابق بالتميز بين الماديات والمعنويات أخذ يدق وينمحى ؛ اذ يرى أن الناحيتين تندمجان حسب ادراكنا الحديث للحضارة عامة وسوف يتضح لنا ذلك وضوحا أكبر عندما نعالج موضوع الكلام .

دور الطفولة

ومن أهم لوازم اعداد « الحضارة » وخلقهـا ، الفترة الطويلة التى يعتمد أثناءها الطفل على الغير قبل أن يشـتد وينمو جسمه وذكاؤه ليستطيع الاعتماد على نفسه ويشق طريقه فى الحياة ، ولولا معاونة من يكبرونه سنا لزال بسرعة من الوجود لضعفه وهـذا يعنى أن طول الفترة التى يظـل الطفل خلالها عديم الادراك والاحساس بكل ما يحيط به ، تؤثر تأثيرا كبيرا على استعداده أول نشأته .

ينضج الفأر من الناحية الجنسية عندما يبلغ الأسـبوع السادس ، ويتم نمو جسمه فى أشهر ثلاثة . ويستطيع العجل وكذا المهر المشى بعد ولادته بقليل ، ولكن الجوريلا يمتـد زمن طفولتها ولا تنضج جنسيا قبل عشر سنين أو اثنتى عشرة سنة ، ويستمر نموها بضع سنين بعد ذلك كما هى حـال الانسان . ولكن الجوريلا رغم امتداد زمن طفولتها لا تتمتع بمزايا وخاصيات الانسان الأساسية الهامة التى أتاحت له أن يخلق حضارته وينميها وينشرها .

نولد جميعا غير متحضرين ، وقد نبقى على تلك الحالة طول حياتنا لولا انغماسنا واندماجنا فى « الحضارة »ويتوقف

تكوين شخصيتنا وانطباعاتنا على الفترة الطويلة بعد مولدنا، وتبعا لمكان نشأتنا فقد نتشكل وتتكون لنكون كقوم (بابيوان) [1] أو كالصينى أو الباريسى ، ولا خيار لنا فى أن نتكلم عندما نشب لغة أهل(هوتنتوت)[2] أو نتكلم كالروسى أو الجرمانى ، ولكننا نتعلم دائما أن نقلد فى كل شىء ونعمل مثل الذين نعيش ونشب بينهم ، ولا مندوحة من أن نتعود عاداتهم وتتقبل آراءهم ونتشبع بوساوسهم ؛ فكل هذه الخصال تنطبع فينا قبل أن يكون لنا ارادة أو فطنة ودراية . ويتحتم علينا أن نقلد من هم أكبر منا وقد كانوا بدورهم أطفالا صغارا وتحضروا طبقا للعادات والأحوال السائدة فى بيئتهم . وهذه هى السنة التى لا تتغير ولا تتبدل، واليها يرجع الكثير من أبرز خاصيات « الحضارة » .

ولما كان استيعاب الثقافة مرتبطا ومعتمدا على قدرة الطفل على الفهم والاستيعاب ، فلا غرابة لما تدل عليه الشواهد من أنه عندما يبلغ المرء أشده ويكمل نمو جسمه ، تقل قدرته على زيادة المعرفة ويتراخى الفهم والذكاء عنده ، بل قد يتلاشى فى كثير من الحالات وعندما يبلغ الطفل الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره يكون قد حصل على قدر كبير من

(١) Papuan (٢) Hottentot

المعرفة والتبصر والانطباعات والتقدير العام لمواطنيه ودنياه التى يعيش فيها ، ويستمر محافظا على كل ذلك مدى حياته ، وربما يتحول بسيط فى بعض النواحى .

عندما اشتركت الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب العالمية واستدعى الأمر اختبار مقدرة وكفاية عدد ضخم جدا من الشباب ، عاون ذلك معاونة كبيرة على معرفة ما غاب عنا من نواحى الحضارة ، واتضح أن من بين المليون والسبعمائة ألف الشخص الذين فحصوا ، أن من هؤلاء ٤٥٪ لم يزد فهمهم عن ادراك الشخص فى الثانية عشرة من عمره (نقلا عن الدكتور هنرى جوادارد — وهـو حجة شهير) مع أن من وقع عليهم الاختيار لعملية الاختبار ، كانوا أشخاصا عاديين فى مستواهم وليس بينهم أبله أو معتوه . ومع احتمال أن الاختبار لم يكن دقيقا فانه يؤكد الحقيقة المشاهدة من أن استيعاب وتشرب الثقافة مرتبط بنمو الجسم ، سيما التطورات الغريبة فى خلايا مقدم المخ واتصالاتها ؛ فنمو هذه الخـلايا وتطوراتها جسيم منذ عهد الطفولة الى البلوغ فى الأحوال الطبيعية ، وفى النادر من الحالات أن يستمر نمو العقل بعد عهد الطفولة والبلوغ ، وتفى عادة فترة ما قبل سن الثالثة عشرة لنعرف وتتعود ونستوعب عادات آبائنا وميـولهم وديانتهم

واتجاهاتهم السياسية وأخلاقهم وصفاتهم العامة ، وقد يمتد تفهم الانسان للحياة وأحوالها ويستطيع أن يلم بخبرات خاصة بمرور الزمن ولكن ما تتعلمه وتتفهمه فى طفولتنا يستمر مسيطرا علينا وقليلا ما تتحول عنه بل تترك عادة تلك الانطباعات بغير أن نعيد النظر فيها مع احتمال عملنا على ملاءمتها للظروف والأحوال بمرور الزمن وتوالى السنين ، ويلوح أن الناس عامة خاضعون لما اعتادوه من مجريات الحياة ، وتتكون تلك الحالات — على ما يبدو — أثناء نمونا . وقد أوضح مؤخرا (ثورنديك)[1] أن المقدرة على التعلم تتضاءل ببطء محسوس بعد البلوغ .

يؤكد الخبراء فى فن الاعلان ، وكذا ناشرو الصحف ومخرجو أفلام السينما ، الافتراض القائل بأن ما يروق الطفل الذى يبلغ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر ، يحوز بصفة عجيبة موافقة واستحسان الجمهور ويتفق وذوقه . وهذا يعنى أن الكثرة الساحقة من الناس رجالا ونساء تستوعب فى عهد طفولتها الحضارة والثقافة العامة للوسط الذى ينشأون به ويتعذر عليهم تعدى حدودها بمرور الزمن ، اللهم الا بجهد كبير ؛ فقد يعمد واحد من كل مائة شخص الى تعديل ما انطبع

(١) E. L. Thorndike

فى ذهنه من صور وذلك بالمثابرة على القراءة والدرس وأن يجد لينمى فى نفسه الاتجاه الى الفنون الجميلة والأدب والمخترعات العلمية . ولكن كل هذا وغيره من المجهود الشخصى للانسان واعتماده على نفسه ليشكل تمدنه وتحضره ، يشذ ويخرج عن نطاق مجال البشر عادة ، وفى الواقع أن الاحتفاظ بحضارتنا وثقافتنا المعقدة يعتمد على قلة ضئيلة جدا من الناس، ولذا فلو أن بضعة آلاف من الأطفال المختارين بعناية من بعض الدول الناهضة ، لو أن هؤلاء الأطفال أعدموا عند ولادتهم لانعدم التقدم فى ميادين الصناعة والفن والأدب ، بل لتدهورت الحال لعدم وجود من يعمل على تنظيم الصناعة وتمويلها والاحتفاظ بمستوى المختبرات العلمية والتأليف ؛ فالغالبية العظمى من الناس تكاد لا تستطيع فى أحسن الحالات أكثر من الاحتفاظ بمستوى الحضارة التى نشأوا فى محيطها ، وحتى الأفذاذ المخترعين الذين أسلفنا ذكرهم لايستطيعون مفاداة مواجهة المتاعب والصعاب التى تحيط بهم والتى لا ينظرون اليها كأنها مجرد عقبات تعرقل طريقهم ، بل كضمان وسـاوى للوصول الى أهدافهم ، ومن الجحود اعتبارها غير ذلك .

وقد يتساءل بعض أصحاب الأمزجة الخاصة ممن نعموا بظروف مواتية : « ماذا تعلمنا ؟ » ويفعلون ذلك فى تواضع

جم نتيجة لدراساتهم وبحثهم المستمر المتواصل . وقد يصل عالم الطبيعة الى نظرية جديدة فى تكوين الذرة ومع ذلك يتمسك ويتشبث بما انطبع فى ذهنه من عقيدة دينية وهو فى العاشرة من عمره . وقد ينهمك فى فلسفة عويصة ولكنه يظل من أشد أنصار معتقدات الرجل العادى منذ خمسين سنة ماضية .

لو وضعت هذه النقاط موضع الاعتبار لتغيرت وجهة النظر العقيمة الى الفروق بين المجتمع والفرد ، ولأخذت مظهرا جديدا ، ومن وجهة النظر الى الحضارة فان كل فرد مدين بجميع مؤهلاته كمخلوق متحضر ، لغيره من الناس ، وحتى من الناحية البيولوجية فانه يتكيف الى درجة كبيرة بحياته البيتية ؛ وذلك من نواحى عاداته وأفعاله ومزاجه . وعلى ذلك تكون نظرية (تروتار) [1] عن غريزة القطيع غير ذات موضوع ، لأن الطفل يتشكل بتأثير الغير حسب تصورهم ، ومن المستحيل معرفة ما اذا كان الناس قد عاشوا فى جماعات قبل بزوغ عصر الحضارة ، ولكن طول فترة الطفولة وضعف الطفل يستدعى اعتماده على غيره فى كثير من الوجوه .

---

(١) Trotter

وبالطبع لايوجد ذلك النـوع من المجتمع الذى يبدو كشخصية قوية غالية تدعو ذلك الذى يسمونه بالفرد ، الى أن يضحى ببعض رغباته الشخصية لصالح ذلك المجتمع .

وأما ما ينبغى أن نعمله فهو أن تلائم تصرفاتنا وأعمالنا ما اصطلح عليه مواطنونا من « الخير » و « الشر » وهذه القواعد التى تحكم السلوك والعواطف هى التى تنظم المجتمع ولها قوتها واعتبارها ؛ فاذا ما خولفت أو شكك فى أمرها ، فللمخالف الخزى والعار والسجن وقد يكون الموت جزاءه ، كما أن وسائل مراوغة المجتمع تؤلف فصلا ممتعا فى تاريخ الحضارة ، وليست تلك الوسائل بمستعصية على الداهية الماكر ، ويلوح أنها تزيد حياة أصحاب بعض الأمزجة خصبا سواء أكان الشخص لصا ، أم قصصيا ، أم فيلسوفا . ويبدو أن مثل هذه الأعمال كثيرا ما تثير عواطف تسعة وتسعين من كل مائة من الناس . وطالما كانت مخاتلة الجماعات من عوامل الشهرة والسمعة والصيت للكثيرين من الأبطـال من عصر (يعقوب وعولس) [1] الى هؤلاء الذين يتبوءون اليـوم

(١) Jacob & Ulysses. يعقوب وقصته وابنه يوسف واخوته مذكورة فى القرآن الكريم ـ أما عولس فبطل قصة الأليازة من الأساطير اليونانية القديمة الشهيرة .

المناصب السامية . وأما الرأى الجرىء والادلاء به وايضاحه فانه لما يرق بعد الى درجة اثارة الحماسة الفطرية

الكلمات باعتبارها أعمالا

الكلمات من أهم العناصر التى خلقت الحضارة ، ولم نذكرها الى الآن الا عرضا . وبدون اللغة كان من المتعذر حتى مجرد بدء التحضر ، وقطعا استحالة بلوغ الحضارة الدرجة والمنزلة التى بلغتها اليوم . والكلمة هى أساس التفكير والتدبير الواعى والبحث ، بل يعاون التكلم على أكثر من ذلك فيخلق عالما من الخواطر والصور الذهنية التى تتغلغل وتفوق الحقائق التى وصل اليها البشر . وأما ما يعتبره الناس حقائق مسلما بها فقد تشكلت كما تصورناها حتى أن الفلاسفة المعاصرين أخذوا يفقدون ثقتهم فى امكان فصل وظيفة وعمل الفكر عن أثر وشأن الحقائق . وقد كشف أخيرا الكثير من المعلومات التى تؤدى الى ثورة فى النظريات القديمة عن الكلام والتفكير ، وتقضى على بعض الحيرة والشك الذى غمر الفلاسفة ، وسنشير بايجاز هنا الى وجهة النظر الجديدة .

يقول الانجيل الرابع : « فى البداية كانت الكلمة ، وبالكلمة صنع كل شىء ، وفيها كانت الحياة ، وكانت الحياة النور الانساني ، وكانت الحياة الضياء والمعرفة للانسان » .

وقرر « جوتيه » أن العمل والفعل كان البداية ؛ ويحاول الكتاب الحديثون القاء ضوء جديد على «الحضارة» باعتبارهم وتسليمهم أن الكلام كان دائما عملا ، وكان العمل يعتبر أبدا صانع المدهشات .

ويخلق الكلام أشياء ما كانت لتوجد بغيره ، وان الكلام هو نور الانسان ؛ كما أنه ظلامه الحالك أيضا .

احداث الضوضاء الصوتية خلة وخاصية معروفة عن الحيوان ؛ ففرس النبى ، والضفدع ؛ والطائر المعروف باسم (هوبيورويل)[1] ، والكلاب ، وكثير غيرها من المخلوقات ، تظهر صبرا وجلدا فى عادة احداث الضوضاء بأصواتها . كما أن الانسان أيضا محب ومولع بالثرثرة ؛ وقد يضجر رفاقه من حديثه ولكن صمته يفزعهم ؛ فالصمت مريع ولا يبشر بخير لأنه عمل غير ودى . وهكذا قد أوضح (ما لينوفسكى)[2] أن من وظائف الكلام العديدة التعبير والتوكيد لحب الرفقة والمؤانسة . وقد زادت العناية أخيرا بدراسة صيحات الحيوانات المختلفة وارتباط ذلك بحاجاتها وتصرفاتها ، وقد كشف

---

(١) Whippoorwil طائر أمريكى ليلى والأسم مشتق من الصوت الذى يحدثه

(٢) Malinowiski

(ويتمان وكريج) [1] العلاقة والارتباط العجيب بين هتاف الحمام وطريقة حياته .

أما (كوهلر ويركس) [2] وغيرهما فيهتمون بالحيوان الأكثر قرابة للانسان .

وكل ما ينبغى أن نبرزه هنا هو أن لغة الانسان لا بد وأن تكون قد نشأت عن الأصوات التلقائية التى كانت تأتى بها (السلالات الأولى للانسان) [3] .

لم يكن لدينا أى دليل على وجود اللغات قبل أن يبدأ الانسان عمل صور ورسوم تسجل ما يقع من أحداث وتصور اشاراته التعبيرية ، ثم تطورت الصور هذه الى نوع من الكتابة ، وتبيّن النقوش المصرية الكتابة بالصور ثم تحولها بعد ذلك بمهارة فائقة بمرور الزمن الى رموز صوتية هى الحروف الهجائية ، وقد تحقق هذا من خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة مضت . ويتضح من اللغة المصرية ومن تعقدها العجيب واكتمالها ما يدل على تطور سابق امتد أمدا طويلا جدا ، قياسا على طبيعة البطء فى اختراعات البشر المادية.

---

(١) Whitman & Craig

(٢) Kohler & Yerkes

(٣) Pre-man

بينما خفى علينا كيف بدأت اللغة عند الانسان بسبب انعدام أى تسجيل لها طوال مئات آلاف من السنين ، فقد وجدت وسائل جديدة لتفهم الموضوع أحسن من ذى قبل. فلدينا الآن معلومات كشفت أخيرا من مصادر تاريخية ، وأخرى حديثة ، تؤدى الى احداث انقلاب وثورة فى وجهات النظر القديمة . فمثلا ما كان يسمى (اللغة البدائية)[1] تصلح لأن تكون دليلا وبرهانا على أن « الكلمات » عبارة عن أعمال جوهرية وثيقة الصلة بسلوك الانسان ، كما أن ملاحظة الأطفال (وقد أحسن اللاتين عندما أطلقوا عليهم لفظ Infantes أو المخلوقات التى لا تتكلم) والطريقة التى يتعلمون بها كيف يتكلمون ، ملاحظتهم هذه تؤيد وتؤكد الملاحظات الناتجة عن دراسة القبائل الأمية التى تجهل الكتابة والقراءة ، وينستطيع كل من يعرف الوسيلة أن يستدل ويبرهن على صحة تلك الملاحظات اذا ما اختبر ما يدور حوله من كلام وثرثرة .

بيّنا كيف أن التكلم نوع من العمل ، وأنه ايماءة وعنوان المودة ، وليس مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار والادلاء بالآراء كما علمنا الفلاسفة ، فعندما يقول المرء : « كيف حالك ؟ » فليس هذا بسؤال يجاب عليه كما يجاب على

(١) لم تكن الى العهد الأخير مكتوبة

سؤال عادى . وكذلك القول : « يوم جوّه جميل ياسيدى » فلا يقصد بذلك اعطاء معلومات جديدة ، وانما هو لون من المفاكهة والمباسطة كما يرفع المرء قبعته للتحية أو أن ينحنى أو يبتسم أو يصافح مسلما .

نستطيع « بالكلام » أن نعمل ما هو أهم وأعظم شأنا ؛ فقد نهاجم بكلمة مهاجمة أبعد أثرا وأقل خطرا من لكمة باليد . وبالكلام أيضا يمكن أن نقهر الأخطار ونتخلص منها ونبتعد عنها . كما نرى أن جماعات وطوائف من أرقى طبقات المجتمع يكتسبون أرزاقهم بالكلام ، الشفهى منه والمكتوب ، فهناك مهن كثيرة يقتصر نشاط أصحابها على الكلام وحده كالقساوسة والمعلمين (النظام القديم) والمحامين والساسة ، كما يقتصر السماسرة على قول كلمة « أشترى » أو « أبيع » ولا ريب أن هناك أمورا أخرى تتمم هذه الأعمال ولكن الكلام بذاته عمل حاسم ممتزج امتزاجا وثيقا بتلك الأمور بحيث لا يمكن أن تتبين أين يبتدىء الواحد منها وأين ينتهى الآخر ، وبالكلام أو بالكتابة يمكن أن تنهى الأعمال بغير تدخل أى شىء آخر . فتأثير الكلام السحرى وما يمكن أن يحققه من أعمال عظيمة شىء معترف به ومعروف فى كل زمان ومكان.

جاهد (يعقوب وأشعيا) بمرارة لكى يباركهما والدهما

العجوز الضرير ، وكانت كلماته خطيرة الشأن ؛ فقد تؤدى الى خضوع أجيال لم تولد بعد لذرية أولاده ، أو تكون كلماته قاضية عليه وعلى أولاده بالذل والعبودية الأبدية .

وكما لاحظ قسيس فى القرن الثامن عشر فان للكلام سحرا وفتنة وبهجة تجعل له تأثيرا وقوة أعظم مما نتصور ؛ فالكلمات تجلب السرور والانشراح والهم والبلوى مما لم يدركه أجدادنا الأولون قبل معرفتهم لها .

وعلى الكلمات اعتمدت العناصر الهامة التى شيدت وبنت الحضارة ، والكلام ينشىء ويوطد أنواعا جديدة من الاحساس والشعور وسرعة التأثر ، كما يزيد صفاء الادراك الى حد كبير ويجدد التصور ، وهذا كله لا يقدر له الدوام بغير الكلمة . وبهذه الأمور المشتبكة المتزايدة التى خلقتها الكلمة نستطيع أن تتقن ونحكم آمالنا ومخاوفنا ووساوسنا وغرورنا ، والغيرة وتأنيب الضمير والطموح ، نستطيع بالكلام أن نحسن كل ذلك الى درجة أسمى وأعلى مما قد يستسيغه الملاحظ ؛ اذ فى قدرتنا أن نعود بكل ذلك الى الماضى أو أن نجعله من خطة وتدبير المستقبل ، والكلام يبنى قصورا فخمة فاخرة أو يحفر جبا عميقا مظلما أكثر مما تستطيع الأيدى أن تصنع .

التكلم والتفكير

يساعد ما أسلفنا قوله عن وجهة النظر الحديثة الى اللغة ، على ايضاح التأويل الجديد للاصطلاح القديم عن (العقل والاستدلال)[1] وهذه تبدو كما رأيناكأسلوب ومنهج لا كمحرك ، وأنها السبيل والوسيلة لعمل الأشياء لا نفس الأشياء . وقد سمى (چون ديوى) [2] كتابه الصغير البديع عن العقل (كيف نفكر) [3] ، ولما شرع الفلاسفة الأول يفكرون فى التفكير وكيف أنه مكننا من معرفة الحقيقة ، اتضح لهم أنهم يكتبون كتبا مطولة جافة صعبة القراءة وأطلقوا على أبحاثهم اسم (ابستمولوجى) [4] أو نظرية العلم والمعرفة ، ولم يعتمد التفكير الذى كان له الأثر الفعال فى بناء الحضارة على أبحاثهم ولا تأثر بهم ، وانما يوجد اعتباران اثنان أو ثلاثة يمكن أن تعالج هنا ولها أثر على الدارسين الحديثين الذين يبحثون ويتقصون موضوع « التفكير » .

والتفكير والكلمات متلازمان ؛ اذ لكى يكون التفكير

(١) Mind and Reason (٢) John Dewey

(٣) How We Think (٤) Epistemology

واضحا لابد من أن يعتمد على الأسماء واشتباكاتها المختلفة الواحد بالآخر ؛ فمثلا فاتورة البقال ، ودفتر الشيكات ، وقلم الحبر ، وظرف الخطاب وطابع البريد ، وصندوق البريد ، كل هذه أسماء موضوعة بعضها مع بعض فى سياق خاص ، وأثير أخيرا نقاش وجدال وتحليل حول ما اذا كان التفكير هو دائما تكلم خافت بيننا وبين أنفسنا ؛ فالطفل يبدأ بالمناغاة والاتيان بأصوات من غير وعى أو تدبير ، ثم يتبين أن الأصوات التى يحدثها تأتى له ببعض الأشياء فيبدأ يذكر الأسماء بحماسة شديدة ، ثم يكثر من الرغى والثرثرة ارضاء لوالديه ؛ ثم ربما يعمد الطفل الى مجرد تحريك شفتيه كما يفعل بعض الناس الذين يستمرون محتفظين بتلك الخصال الصبيانية ولا يحرك لسانه ليتكلم ، ويتضح من الاختبارات المناسبة أن الصمت ، أو الكلام المكبوت هذا ، يصحبه دائما عملية ضبط وتنظيم عضلات قصبة الصوت مما يدل على أداء الكلمات والجمل فى صمت ؛ فيمكننا أن نقول جهرة : « هذا سيىء للغاية » أو أن نهمهم ونتمتم بهذه الجملة ، أو نعد جهازنا الصوتى لنقولها اذا شئنا ذلك . ويبدو أن هذا التكلم المكبوت هو التفكير ، وقد يشك الكثيرون أو ينكرون أن التفكير

ما هو الا مجرد التحدث الى أنفسنا . غير أن هنـاك من الشواهد والأدلة العديدة (مع تحفظ بسيط) التى جاءت نتيجة لدراسة الصم والبكم والتى تؤيد ما أسلفنا من أنه « اذا انعدمت الكلمات انعدم التفكير » .

ويتضح بسهولة ويسر أن « التفكير » أنواع مختلفة ، فهناك الذكريات الشاردة المتتالية ، والأفكار الغامضة ، والآمال ، وتميز الأشياء ، والاخفاق ، والحقد ، والبغضاء ، الذى أطلق عليه اسم الهواجس — أى شرود الفكر — ويشمل نوعا أدق من التفكير ؛ فقد أوضح الفحص والمراقبة أنه يتكون ويشتمل على الذكريات الماضية ، وما سيأتى به الغد ، ويسوغ التصرفات السابقة وما نفكر فيه اليوم ، وانعكاسات وأثر المعاملة غير العادلة من المواطنين ، بل بالنسبة للعالم أجمع . أو أن نقنع أنفسنا بأن المقادير تجرى فى أعنتها على أحسن حال وينبغى أن تظل كذلك . كما أن تدبير الحياة اليومية العادية نوع من أهم أنواع التفكير ، ودون ذلك نشعر ونحس بالهواجس تعمل عملها كتيارات خفية ؛ لأن «التفكير» شىء معقد .

يتجه تفكيرنا أحيانا الى البحث عن شىء نجهله ، وربما كان ذلك نتيجة لمجرد شكوكنا الخاصة وفضولنا الغامض

المبهم ، أو لرغبة نبيلة لاصلاح وضع اجتماعى معيب ، أو زيادة معلوماتنا عن الموجات المضيئة ، واللوحات الصينية ، والنفسيات العصبية ، والمخترعات ، وعندما نعالج أمور الكون المادية والطبيعية ؛ فان نوعا خاصا من « التفكير » — هو التفكير الرياضى المضبوط المحكم — يؤدى الى نتائج تحمى الباحثين من الآراء المتحيزة التى تحرجنا فى جميع نواحى تفكيرنا . وهذه لغة خاصة رقيقة أو طريقة للتحدث عن الأشياء باستعمال معجم ولغة حساب المثلثات واللوغارتم والرياضيات وغيرذلك . وقد ثبت أن هذه طريقة مثمرة ناجحة للتكلم عن الضوء مثلا وعن طبيعة المادة والقوة وفى معالجة المسائل الهندسية ، ولكن القليلين من الناس من يعكفون على هذا النوع أو غيره من التفكير العلمى الخالص .

ويلوح أن الكثير من الاختراعات العلمية تأتى نتيجة لمقدرتنا على التجربة بفكرنا فنتحسس ونتلمس ونتعثر ولكننا ننجح أحيانا . وهذا المجهود العقلى هو نوع من البحث والتقصى والخطأ ، ولا يستمر طويلا دون تأثيرات خارجية تحاسب وتراجع الحدس والتخمين والاستنتاج الذى يأتى نتيجة لتلك الوسائل .

وأحدث الوسائل التى تبشر بنجاح فى ازدياد معارفنا عن

جميع أنواع التفكير هى « علم النفس للشواذ » ؛ اذ يلوح أن الأوهام والتخيلات التى تملأ أذهان نزلاء المصحات العقلية، يلوح أنها مجرد مغالاة ومبالغة لتفكير الطلقاء من الناس ، ويأمل علماء النفس أن تؤدى معلوماتهم الخاصة ودراساتهم للأطفال وحديثى الولادة الى القضاء على عيوب ورذائل الحضارة ، أو اقلالها عما وصلت اليه الآن . وفى رأيهم أن المدنية فى كثير من مظاهرها ما هى الا نوع من الجنون البسيط الهادىء ولا يمكن القضاء على كل ذلك الا بتغير كبير فى وسائل تربية النشء لتوقى الانحراف والأحداث المحزنة الطارئة ومنع تسربها الى البيئة الثقافية سريعة التطور .

لا يقتصر تفكير الناس رجالا ونساء على أوقات صحوهم ، بل يفكرون أيضا فى نومهم . وقد درجنا على الموازنة بين أفكار الناس وخيالهم وتجاريبهم فى المنام ، وبين أفكارهم فى اليقظة، موازنة حادة وأكثر عنفا مما يبدو ، عكس ما كان عليه الانسان البدائى ؛ اذ لم يكن يعتبر أحلامه مجرد تخيلات مفرحة أو محزنة لينساها بمجرد أن يفتح عينيه ، ولم تكن أحلامه عديمة الأهمية وقليلة الشأن عنده بل كان يعتبرها حقيقية وموجهة له فى تصرفاته كتلك التى يراها نهارا ، بل كان للأحلام من الشأن والتأثير عليه أكثر مما لأحداث وخبرات

الأيام . وتعاون كثيرا على اتساع ادراكه . ومن العسير أن نحذر ماذا تكون حال الحضارة بغير تأثير الأحلام المتشعب المتعدد ، ولو أن الانسان لا يحلم هل كان يعتنق الديانات ويكوّن تلك الرموز والاستعارات المجازية والشعر والكثير من الفنـــون !! اذ أصـــبح من الثابت أن كثيرا من مختلف المعتقدات والتصرفات عند الانسان البدائى راجع الى أحلامه، كما تعتمد وتبنى وتقوم معتقدات وأعمال الأقـــوام الأرقى حضارة ، على حضارة أسلافهم البدائيين التى تلوح أنهـــا المنبت والأصل الذى بزغت منه الحضارة الأرقى ، لذا ينبغى أن نستخلص مما تقـــدم أن الأحلام من أهم وأبرز العوامل والعناصر التى شاركت فى بناء صرح الحضارة كما نعرفها اليوم.

نرى فى أحلامنا أننا نزور أماكن نائية ، فمثلا بينما نحلم أننا نتجول فى شوارع باريس اذا بنا نستيقظ فجأة فى نيويورك. فأين اذن للأنسان البـــدائى المفر من الاعتقـــاد من أنه له شخصية ثانية تستطيع أن تهيم بعيدا تاركة الجسد فى الكوخ بينما تسرح الروح بعض الوقت فى حياة طليقة ومغامرات ، متحررة من الجسد وبطئه وبلادته . وفى الأحلام نرى الموتى أحياء نشطين قد يحذروننا ويوصوننا ،أو يقوّون من عزيمتنا، وينهروننا لأقلاعنا عن التقاليد القديمة ، أو يملؤننا ثقة بالفوز

والنجاح . وكان هنود شمال أمريكا يشاطرون اليهود القدامى والرومان ثقتهم وايمانهم بالأحلام . وفى الهند والصين يقوم احترام السلف عقبة كأداء فى سبيل انتشار المعاهد والمؤسسات الغربية ؛ ولدينا من هذا ما يفسر تفسيرا مقبولا أصل العقيدة عن خلود الروح والنفس بعد الموت ، من غير أن نلح فى التساؤل عن منبع وأصل تلك العقيدة . لدينا أكثر من هذا كله ، لدينا بزوغ فجر الآلهة وأنصاف الآلهة وأصل ومنشأ المعتقدات عن تلك المخلوقات « الخارقة للطبيعة » ومناجاتها للناس ، وغضبها واحتمال استرضائها واستعطافها بتقديم الضحايا والقربان .

التطلع إلى المستقبل

سردنا فيما أسلفنا من هذا المقال بعض الاعتبارات الهامة التى لم تحظ من قبل باتنباه وعناية الباحثين فى موضوع « الجنس البشرى » وهى اعتبارات واضحة عندما يلفت اليها النظر ؛ ولكن مما يؤسف له أن من خصائص الحضارة أنه من العسير تفهم المسائل الواضحة السهلة لشدة اتصالها بنا اتصالا وثيقا يجعل من الصعب أن تلفت انتباهنا ولابد من البحث العميق الخاص لنعرف الأشياء التى نعتبرها دائما

وبطريقة لاشعورية أمورا مسلما بها ومفروغا منها ، وأن تلك المسائل التى تستهوينا ونميل اليها أكثر من غيرها ، ما هى الا انطباعات صبيانية لا تحظى منا بأى اعادة تفكير أو تحليل .

وهناك تذمر شـــديد من تصرفات الناس الصبيانية التى صارت أكثر انتشارا ووضوحا بما تفرضه وتتخيله الأفكار الديموقراطية من أن كل انسان حر يقول ما يشاء .

ولنذكر كتابى كل من (لنجدون ديفز — عهد جـديد للايمان)[1] و (أيارس فى كتابه «العلم — المسيح الزائف»)[2] — لنذكر هذين المؤلفين لنضرب مثلين للتمعن واطالة النظر بدقة ومرارة الى سخف الانسان وغروره وجهله الذى يتشبث به بعناد واصرار . والمؤلفان يتخيلان مستوى للفهم لا وجود له فى الواقع ، كما يظهر بوضوح من قراءة الصحف الشائعة والمتـــداولة ومن المواعظ والخطب الســـياسية ، مما خيب آمالهما ، ولكن لا داعى لاندهاشهما اذ لا غرابة لمن كان أصله حيوانا أن يخطىء أخطاء تستحق السخرية وهو يتعثر بالكلام والألغاز الغامضة المحيرة والمذاهب القاسية .

---

(١) Langdon Davis « New Age Of Faith ».

(٢) A. C. Ayeres « Science. The False Messiah ».

وهكذا فان « الحضارة » — كما أسلفنا — تكتسب فى طور الطفولة فهى اذن عرضة لتأثير مشتهيات الأطفال وسوء تقديرهم ، ولا شك أن الانسان يميل ويفضل أحلامه وأوهامه عن مجرى حياته فى اليقظة ، وفى الواقع أن من اشتهروا بعمق التفكير عالجوا دائما الى عهد قريب ، مخلوقات خيالية وأحداثا لم تقع أصلا ، وبتصور عقيم وبالمجاز والرموز والتشبيه الخاطىء . وقد استبعد (جون ديوى) [1] فى كتابه « تجديد الفلسفة » استبعد الفلسفة والأدب عن ادراك الهمج القدامى : وبين كيف أن هذه قد تغلغلت فى الفكر والبحث الحديث ؛ وأن الرأى المبتسر المتحيز الذى لا يمكن التغاضى عنه والذى يقول ان « العقل والجسد هما شيئآن لكل منهما كيان مختلف عن الآخر فى الجوهر » ان هذا هو الخطأ الذى يسهل تفسيره وتعليله والذى لا مندوحة للهمجى من الوقوع فيه ، فضلا عن أن الارادة والعقل الباطن والشعور بالقيم الأخلاقية ، وان اعتبرت كعوامل محركة الا أنها تتبع طائفة التصورات الحيوانية البدائية . وحتى تعليل الأسباب بمسبباتها كما كان مفهوما من قبل لا يعدو أن يكون تعبيرا عن دافع ساذج لذم أو مدح شخص بذاته أو شىء معين بدافع

---

(١) Reconstruction of Philosophy : John Dewey

حادث أو آخر . وقد أخذنا الآن نتعلم ونعرف كيف نفكر حسب الأحوال ومقتضياتها ، فمثلا عندما كتب (ادورد كاربنتر) [1] من سنين عديدة كتابه « الحضارة — أسبابها وعلاجها » انتهج نهجا محترما لينا ، وقد أوضح بدرجة كافية أن الحضارة لم تكن نتيجة لعامل أو سبب واحد معين وانما قد نشأت ونبتت الحضارة نتيجة للعوامل الكونية العالمية المعقدة المشتبكة ، ويستحيل أن يوجد دواء أو علاج واحد للتخلص من عيوب ومساوىء الحضارة المعترف بها . وقد كتب حديثا الكاتب الايطالى (باريتو) [2] مجلدين كبيرين حشاهما بالأمثلة العديدة عن سوء الفهم الذى تقوم على أساسه الابحاث الخاصة بالعلوم الاجتماعية .

عندما يدرك الناس ، أو على الأقل عندما يدرك زعماؤهم حقيقة ومنشأ « الحضارة » وكيف تطورت ، سيجد عندئذ أولئك الزعماء ، أسسا أثبت وأصلح ليبنوا عليها الوسائل الأحسن والأكثر تأثيرا فى استئصال الأخطاء الشائعة بين الناس ولحفز وتشجيع واعادة البناء والاصلاح المثمر بصبر وجلد .

(١) Civilisation, its Cause and Cure : Edward Carpenter.

(٢) Pareto

وحتى الآن مضى الانسان يتعثر فى طريقه مستعبدا بالماضى لا متحررا بما كسبه من تجارب ليسير قدما الى الأمام ، وقد أخذت أسباب كل هذا تستبين وتبدو أكثر وضوحا عن ذى قبل ؛ وربما اتخذ بمرور الزمن من هذه المعرفة الجديدة أسسا خاصة للتعليم والتربية . خصوصا فى سنى حياة الانسان الأولى — تدفع وتوجه تقدم الحضارة وازدهارها ، لا أن تعيق وتؤخر تطورها .